

سلسلة بحث وتأليف

(١)

# فقهاء أهل الكنى في السبعة

(٤) القاسم بن محمد بن أبي يكْر

تأليف

عبد المنعم الهاشمي

والرابع عشر

رش - بيردت

[www.dawahmeme.com](http://www.dawahmeme.com)

١٤٢٣ هـ - ١٩٩٣ م

- ١ -

## الإطار العام

«ما رأيت أحداً أعلم بالسنة من القاسم بن محمد، وما كان الرجل يُعدُّ رجلاً حتى يُعرفَ السنة، وما رأيت أحداً ذهناً من القاسم، إنْ كان ليضحك من أصحاب الشبه كما يضحك الفتى»<sup>(١)</sup>.

### ابن أبي الزناد

ترى كيف يكون العالم الذي ربته عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق؟! وآمه بنت آخر ملك من ملوك الفرس، ونشأ يتيم الأب الذي هو محمد بن خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

هذا اليتيم أصبح فيما بعد واحداً من أفضل الفقهاء في المدينة؛ حتى اشتهر عنهم بأنهم سبعة لما لهم من فضل العلماء، الذين ثابروا وأفتووا فأحسنوا، وكان الرأي شعارهم بعد كتاب الله وسنة رسوله، وما جاء على لسان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. لقد نال القاسم بن محمد بن أبي بكر

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٦.

الصديق شرف عضوية فقهاء المدينة الستة . كان من الذين أتبعوهم بإحسان قرابة الاثنين والسبعين عاماً التي عاشها ، وظللت سيرته أيضاً تذكر بكل الإحسان والعرفان إلى يوم الدين .

هل نسمع بدأة هذا البيت في المدينة على لسانه يحكى طفولته ، وكيف بدأت؟ في البداية يقول حفيض «خليل الرسول ﷺ وصاحبي» ، يقول القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : «لما قُتل أبو بصر جاء عمي عبد الرحمن بن أبي بكر فاحتملني أنا وأختي الصغيرة ، ومضى بنا إلى المدينة ، فما إن بلغناها حتى بعثت إلينا عمتي عائشة رضي الله عنها ، فحملتنا من منزل عمي إلى بيتها ، وربتنا في حجرها . فما رأيت والدة قط ولا والداً أكثر منها براً ولا أورث شفقة .

كانت تطعمنا بيديها ، ولا تأكل معنا . فإذا بقي من طعامنا شيء أكله .

وكانت تحنون علينا حتى المرضعات على الفطيم ، فتغسل أجسادنا ، وتُمْسِطُ شعورنا ، وتلبينا الأبيض الناصع من الثياب .

وكانت لا تفتتح علينا على الخير ، وتمرّست بفعله ، وتنهانا عن الشر ، وتحملنا على تركة .

وقد دأبت على تلقينا ما نطبقه من كتاب الله ، وترويتنا ما نعقله من حديث رسول الله ﷺ ، وكانت تزدّنا برأ وإنحافاً في

العدين ؛ فإذا كانت غشية عرفة حلقت لي شعرى ، وغسلتني أنا وأختي فإذا أصبحنا أبستنا الجديد ، وبعثت بنا إلى المسجد لؤدي حسلام العيد ، فإذا عذنا أنا وأختي جمعتنا وضحت بين أيدينا . وجاء عمى عبد الرحمن بن أبي بكر بينما كنا نجلس أنا وأختي في حجر عمتي عائشة فقالت عمتي : أي أخي ، إني لم أزل أراك مُعرضًا عني منذ أخذت هذين منك وضمتهما إليّ ، والله ما فعلت ذلك تطاولاً عليك ، ولا سوء ظن بك ولا اتهاما لك بالقصير في حقهما ، ولكنك رجل ذو نساء (أي أنه متعدد الزوجات) ، وهو ما صبيان صغيران لا يقمان بأمر تضيئهما ، فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقدره فلا يطين بهما نفساً ، ووجدت أي أخ أحق منهن بالقيام على أمرهما في هذه الحال .

وهاهم الآن قد شبا وأصبحا قادرين على القيام بخدمة نسيئهما فخذلها وضمها إليك .

واستمر الشيخ القاسم يروي قصته فأضاف : «فأخذنا عمى عبد الرحمن ، وضممنا إلى بيته» .

و عمل العم الكرييم على إكرام أبناء أخيه محمد ، فشيأ في منزل التقوى وموطن الخشوع والإسلام في أصوله من خبر القرون قرن رسول الله صلوات الله عليه وسلم .

ولكن كان للخنان الفياض الذي أخذه فقيهنا الشيخ القاسم

من عمه أُم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها كان له أثر في تعلقه بها؛ فكان قريباً منها حبيبه إلى قلبه، وكان دائماً عندما يسألها يقول يا أمي؛ أو يقول قالت لي أمي عائشة، وكان يقول عنها أيضاً: فما رأيت متكلماً قطًّا من رَجُلٍ أو امرأة قبلها ولا بعدها أفضح منها لساناً، ولا أعدب بياناً.

وشب الفتى على حفظ كتاب الله الكريم، وكيف لا يحفظه وقد كان جده أول من يحفظ من لسان رسول الله عقب نزول الوحي مباشرة عليه، وأخذ عن عمته من حديث رسول الله ﷺ ما يسمى «علم المهد» وهو أرسطع العلوم لتهيئ ذهن الفتى للعلم وإقباله عليه ورغبته فيه.

## — ٢ —

### صفاته وشمائله

\* ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم بن محمد.

يعيسى بن سعيد

\* ما رأيت فقيهاً أفضل من القاسم بن محمد.

أبو الزناد

هاتان هما بعض كلمات رجال عاصروا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، فهل لنا أن نعطي صورة شاملة عن صفاتيه؟ لقد كان يلبس قلنسوة من خرز أخضر، ورداء أبيض نظيفاً.

كان رحمة الله من أشد الناس تشبهاً بجده أبي بكر الصديق  
رضوان الله عليه.

وقد قال عنه الناس من معاصريه: لم يلد أبو بكر أشبه به من  
هذا الفتى، فلقد أشبهه في كرم شمائله ونبل خصائصه، وقوته  
إيمانه، وشدة ورعه وتقواه، وسماحة نفسه، وسخاء يده.

وممّا روی من مواقف تثبت ما أسلفنا من صفات وشمائل  
ذلك الرجل وهو «ابن إسحاق»<sup>(١)</sup> الذي كان بالمسجد وقال:  
رأيت القاسم بن محمد يصلبي، فجاء أعرابي فقال:

- أيّكما أعلم أنت أم سالم بن عبد الله بن عمر؟

فقال الرجل: سبحان الله، كلُّ سيخبرك بما عَلِمَ.

فقال الرجل: أيّكما أعلم؟

قال القاسم: سبحان الله. فأعاد الرجل سؤاله للمرة الثالثة  
فقال: ذاك سالم، انطلق، فَسَلْهُ.

فقال ابن إسحاق ومن معه في مجلسه: لقد كَرِهَ أن يقول:  
أنا أعلم منه فيزكي نفسه، وكَرِهَ أن يقول: هو أعلم مني  
فيكذب.

ويضيف الذهبي: وكان القاسم أعلمهما. هكذا تجلّى  
خلق العالم المتواضع الحريص من لسانه.

---

(١) هو راوي القصة في سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٦.

كان رحمة الله لا يقبل الهدايا ولا العطایا من أحد، وإنما يعف نفسه عما في أيدي الناس، ولقد جاءت الروايات تقول بأن رجلاً أرسل إلى القاسم بخمس مئة دينار، فأبى أن يقبلها، كذلك كان لا يعيّب أحداً.

من هذه الشمائل التي كان عليها قال عمر بن عبد العزيز فيه يوماً: لو كان إليَّ أن أعهد أمر المسلمين لأحد لؤلئك القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق الخليفة.

ولما بلغت هذه الكلمات الطيبة القاسم جعل يتساءل في عجب: إني لأضعف عن أهلي، فكيف بأمر الأمة<sup>(١)</sup> !!

وها هو ذات مرة يوكل إليه قسمة الصدقات بين مستحقيها من فقراء المسلمين؛ فاجتهد رحمة الله في توزيعها على الفقراء ما وسعه الاجتهاد، وأعطى كل ذي حق حقه. وبعد أن فرغ من واجبه الكريم جاءه من لم يرض عن نصيبيه الذي أعطاه إياه، فجاء إلى المسجد وكان القاسم قائماً يصلِّي، وراح يتكلم في أمر الصدقة، وكان أبو القاسم من الجالسين في المسجد فسمع الرجل يتكلم فقال للرجل: «والله إنك لتتكلُّم في زُجْلٍ ما نال من صدقتكم درهماً ولا سدس الدرهم، ولا أصحاب منها قمرة واحدة».

سمع القاسم كل هذا الحوار وأنهى صلاته والتفت إلى ابنته قائلًا:

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٩.

«يا بني لا تتكلّم بعد اليوم فيما لا تعلم» ولكن الناس قالوا: لقد صدق ابنه، فما نال من صداقتهم درهماً، ولا أصحاب منها تمرة واحدة، ولكن رحمة الله أراد أن يربّي ابنه، وأن يحفظ لسانه من قول ما لافائدة منه من الكلام؛ فلا يكون ثرثراً كثير الكلام.

في عهد الوليد بن عبد الملك أراد المسلمون توسيعة الحرم النبوي الشريف، وقد عقد الوليد العزم على تحقيق هذا الأمل، ولن يتم هذا إلا بإزالة بيوت زوجات النبي ﷺ وضمّها إلى المسجد، وهذه الأمور تصعب على الناس، ولا يرتاحون لها لمكانتها في نفوسهم. عند ذلك كتب الوليد لوالى المدينة في ذلك الوقت وهو عمر بن عبد العزيز وقال في رسالته: لقد عزمنا على توسيعة مسجد رسول الله ﷺ حتى يُصبح مائتي ذراعٍ في مائتي ذراعٍ، فاهمِّ جدرانه الأربع وأدخل فيه حجر زوجات النبي عليه الصلاة والسلام واشتري ما في نواديه من البيوت، وقدم القبلة إن قدرت، وإنك تستطيع ذلك لما كان أحوالك آل الخطاب ومتزلفهم في نفوس الناس، فإذا أبي عليك أهل المدينة ذلك فاستعن بالقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وأشرِّكهما معاً في الأمر، وادفع للناس أثمان بيوتهم بسخاء، وإن لك في ذلك سلفاً صديق هما عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان».

انتهت رسالة الوليد. ودعا عمر بن عبد العزيز القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وبعض علماء أهل المدينة، وأبلغهم

بكتاب أمير المؤمنين، فوافقوه العمل وتحمّسوا له عندما رأوا أن عالمي المدينة القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر قد وافقاه على الرأي، وبashرا العمل في المسجد وامتدت أيديهما قبل الناس، فكانا قدوة لأهل زمانهما مطاعين لهم، ولقد استعان بمكانته عمر بن عبد العزيز لميل الناس إليه وطاعتهم إياه كعالم من علمائهم وشيخ فاضل، وفقه مشهور بينهم.

ولما كانت جيوش المسلمين في هذه الأثناء تستعد لمهاجمة مدينة القدس بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان، أراد ملك الروم أن يهادن أمير المؤمنين، ويقترب إليه خوفاً من هذا الزحف الإسلامي العظيم، فانتهز فرصة غزّم أمير المؤمنين على توسيعة المسجد النبوي الشريف، فبعث إليه بمائة مثقال من الذهب، وأرسل معها مائة عامل من أمراء البنائين من بلاد الروم، وزود العمال بأربعين حملًا من قطع صغيرة من الرخام، الزاهية الألوان والتي تسمى الفسيقاء، عند ذلك أرسل الوليد ذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز ليستعين به على البناء.

وجيء بهذا كله إلى المدينة، وبمشورة شيخنا القاسم بن محمد بن أبي بكر أنفق عمر بن عبد العزيز ذلك كله، واستعان به في توسيعة المسجد النبوي الشريف.

لم تكن هذه مشورته الوحيدة لعمر بن عبد العزيز، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى مات عبد الملك بن مروان، فحزن عليه عمر بن عبد العزيز أشد الحزن، وأسف عليه أسفًا منعه

من العيش ، فقال له القاسم بن محمد: أعلمت يا عمر أن منْ  
مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل  
ومواجهة النعَم بالتدليل<sup>(١)</sup> ، فراح عمر من عشية يومه يشتري منْ  
خيرات أهل اليمن ، وترك كل ما كان يصنع من شدة حزنه  
وأسفه على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .

هكذا كان يبذل النصح والتوجيه لكل من هم حوله ، يتغى  
وجه الله سبحانه عَزَّ وجلَّ ، لقد بَسَطَ الخطب والمصائب أمام  
عمر بن عبد العزيز ، وذُكرَ بما كان عليه السلف الصالح .  
أليس في السلف الصالح كل خير نبتغيه؟ إذن لماذا لا يكون  
أهل السلف لنا نبراساً نستضيء به في الطريق ، ونهدي به كل  
ضلال يعكر حياتنا .

رحم الله القاسم إذ قدر السلف فكان بمكان عظيم . كان  
أعلم أهل زمانه بالسنة ، اكتملت له أدوات المعرفة والعلم بعد  
أن قضى سنوات طوالاً متقطعاً إلى حلقات العلم ، وأخذ عن  
عمته عائشة الكثير الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ ، وفي هذا  
يقول القاسم : ( كانت عائشة قد استقلت بالفتوى في خلافة أبي  
بكر وعمر ، وإلى أن ماتت ، وكانت ملازماً لها مع ترهاتي ( وهي  
الأباطيل والأقوال غير النافعة ) وكانت أجالس البحر ابن عباس ،  
وقد جلست مع أبي هريرة ، وابن عمر فأكثرت ، فكان هناك  
(يقصد ابن عمر) ورَأَيْتُ وعلِمْتُ جمُّ ، ووقفت عَمَّا لا عِلْمَ لِهْ به ) .

---

(١) الحلية لأبي نعيم الأصفهاني ج ٢ ص ١٨٣ .

وَمِمَّا ذُكِرَهُ مِنْ أَحَادِيثُ عُمَّتِهِ عَائِشَةَ عِنْدَمَا كَانَ مَلَازِمًا لَهَا  
قَالَ: قَلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِعُمَّتِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّهُ،  
أَكْشِفْنِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَبْرِيُّ صَاحِبِيهِ،  
فَإِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَرَاهُمَا، وَكَانَتِ الْقُبُورُ الْثَلَاثَةُ مَا زَالَتْ دَاخِلَّ بَيْتِهَا،  
وَقَدْ غَطَّتْهَا بِمَا يَسْتَرُّهَا عَنِ الْعَيْنِ.

فَكَثُرْتَ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ لَا مُشْرِفَةَ (عَالِيَّة) وَلَا وَاطِئَةَ وَقَدْ  
مُهَذَّبَتْ بِصَغَارِ الْحَصْنِ مَا كَانَ فِي بَاحَةِ الْمَسْجِدِ.

فَقَلَّتْ: أَينَ قَبْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا وَقَالَتْ: هَذَا،  
ثُمَّ انْحَدَرْتُ عَلَى خَدَّيْهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ، فَبَادَرْتُ فَمَسَحْتُهُمَا  
حَتَّى لَا أَرَاهُمَا، وَكَانَ قَبْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقْدُمًا عَلَى  
قَبْرِيُّ صَاحِبِيهِ.

فَقَلَّتْ: وَأَينَ قَبْرُ جَدِّي أَبِي بَكْرٍ؟ فَقَالَتْ: هَا هُوَذَا، وَكَانَ  
مَدْفُونًا عَنْدَ رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَقَلَّتْ: وَهَذَا قَبْرُ عُمَرَ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ.

وَكَانَ رَأْسُ عُمَرَ رَضِوانُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَنْدَ خَصْرِ جَدِّيِّي، قَرِيبًا مِنْ  
رَجُلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. هَكَذَا كَانَتِ الْبَدَائِيَّاتُ مَعَ  
عُمَّتِهِ عَائِشَةَ، سُؤَالٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عَبَّاسٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجَ، وَأَسْلَمَ مَوْلَى

عمر بن الخطاب، وغيرهم حتى أصبح عالماً وفقيهاً مجتهداً، وكان له منهجٌ في روایته، فقد كان يحدّث بالحديث على حروف.

وقد قال في ذلك أحد معاصريه: «كان القاسم وابن سيرين ورجاء بن حبيرة يحدّثون بال الحديث على حروفه، وكان الحسن وأبراهيم والشعبي يحدّثون بالمعنى».

ولقد أجمع جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على جواز روایة الحديث بالمعنى إذا كان عالماً بالألفاظ ومدلولاتها ومفاصيلها، خبيراً بما يحيل معانيها، بصيراً بمقادير التفاوت بينها، وبالاحظ ذلك من الأحاديث الصحاح وغيره، فإن الواقع تكون واحدة، وتجيء الألفاظ متعددة من وجوه مختلفة متباعدة، وأكثر مرويات الصحابة والتابعين بالمعنى إلا فيما يتعدى لفظه كالتشهد والقنوت والصلة وما هو من جوامع حكمه بكلمة، فإنهم «أي الرواية» كانوا يحرصون على روایته باللغة النبوية.

وفي كتب الأحاديث الستة المصنفة والمسانيد والمعاجم لا يجري عليها هذا الخلاف، فليس لأحد كان أن يغير لفظ شيء من كتاب ويثبت بدله فيه لفظاً آخر بمعناه؛ لأن الرواية بالمعنى رخص فيها بسبب شدة الخرج على الرواية في خبط الألفاظ، وهذا بالطبع غير موجود كما ذكرنا في الكتب الستة<sup>(۱)</sup>.

---

(۱) انظر سير أعلام النبلاء تعليق بالهامش ج ۵ ص ۵۶.

ولذلك اعتبر المنهج اللفظي أو الحرفـي من شيخنا الفاضل القاسم بن محمد من أدق المناهج لأنـه ثقة، ويلتزم بالنص الـلفظـي ويـجـتهـدـ فيـهـ ماـ وـسـعـهـ الجـهـدـ.

كان الرجل من فقهاء هذه الأمة، حتى إن ابن سيرين كان قد تـقـلـ وتـخـلـفـ عنـ الحـجـ، فـكـانـ يـأـمـرـ مـنـ يـحـجـ أنـ يـنـظـرـ هـدـيـ القـاسـمـ بـنـ مـحـمـدـ وـلـبـوـسـهـ وـنـاصـيـتـهـ، فـيـلـغـوـنـهـ ذـلـكـ فـيـقـنـدـيـ بالـقـاسـمـ».

هـكـذـاـ اـعـتـمـدـ مـنـهـجـهـ وـاحـدـ مـنـ فـقـهـاءـ الـمـعـرـوفـينـ، وـشـاعـ بـهـ عـلـىـ النـاسـ لـأـنـ القـاسـمـ مـنـ خـيـارـ فـقـهـاءـ التـابـعـينـ، وـيـعـدـ فـيـ الـعـلـمـ ثـقـةـ، نـزـيـهاـ، رـجـلـ صـالـحاـ. وـقـدـ اـشـتـهـرـ بـنـ القـاسـمـ بـنـ مـحـمـدـ قـوـلـهـ عـنـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـعـالـمـ وـالـجـاهـلـ وـأـمـانـةـ الـفـتـوـيـ وـمـسـؤـولـيـتـهـ حـيـثـ قـالـ: «لـأـنـ يـعـيـشـ الرـجـلـ جـاهـلاـ بـعـدـ أـنـ يـعـرـفـ حـقـ اللـهـ عـلـيـهـ خـيـرـ لـهـ مـنـ أـنـ يـقـولـ مـاـ لـاـ يـعـلـمـ»<sup>(١)</sup>.

وـحتـىـ أـمـامـ أـمـيـرـ مـنـ الـأـمـرـاءـ رـدـدـ الـمـعـنـيـ نـفـسـهـ فـيـ عـبـارـةـ دـقـيقـةـ قـالـ فـيـهـ: «إـنـ مـنـ إـكـرـامـ الـمـرـءـ نـفـسـهـ أـلـاـ يـقـولـ إـلـاـ مـاـ أـحـاطـ بـهـ عـلـجـهـ».

وـقـدـ قـالـ الإـمـامـ مـالـكـ بـنـ أـنـسـ إـمـامـ الـمـدـيـنـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ؛ يـصـفـ القـاسـمـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ أـجـمـعـينـ قـالـ: «وـكـانـ القـاسـمـ قـلـيلـ الـحـدـيـثـ، قـلـيلـ الـفـتـيـاـ».

---

(١) سـيـرـ اـعـلامـ الـبـلـاءـ جـ ٥٧ـ صـ ٥٧ـ.

وتميز الفقيه الشيخ القاسم بالصراحة في حواره ومناقشته مع أقرانه من أهل العلم مما ثبته هذه الرواية عنه للإمام مالك أيضاً يقول: وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء، فيقول له القاسم: «هذا الذي تريده أن تخاخصمني فيه هو لك، فإن كان حقاً فهو لك، فخلمه، ولا تحمدني فيه، وإن كان لي، فأنت منه في حلّ وهو لك». ونلاحظ في هذه الرواية أنه رجل صاحب حجة، قرئها، ثبت، ثقة يأخذ بمقولة (فليغذر بعضنا ببعض).

وبينما هو في منى ذات يوم إذ بأهل الأمصار من حجاج بيت الله يتکاثرون حوله ويسألونه، فكان يجيبهم بما يعلم، وفيما لا يعلمه يقول لا أدرى، لا أعلم فلما أكثروا عليه، قال: «والله ما نعلم كل ما تسألون عنه، ولو علمتنا وأكتمناكم لا حل لنا أن نكتتمكم»<sup>(١)</sup>.

كان يقبل كل يوم على الحرم النبيوي الشريف في موعد لا يخلفه أبداً، فيصل إلى ركتين نحو المسجد ثم يأخذ مكانه المعروف في مجلسه في الروضة الشريفة بين قبر الرسول صلوات الله العزيم عليه وبين الصبر، فيجتمع حوله مریدوه وتلاميذه من طلاب العلم من كل مكان ينهلون من علم لا ينضب ما دام على قيد الحياة.

وجاء يوم كان القاسم بن محمد من أئمة المدينة الذين يثق بهم الناس، وصيّد من ساداتها المطاعين لعلمهم وفقهم، ومن

---

(١) الحلية لأبي نعيم الأصفهاني ج ٢ ص ١٨٤.

رجالات المدينة المسموعي الكلمة؛ دون أن تكون بين يديه ولاية أو سلطان من قبل خليفة أو حاكم، فقد تحلّى أبو القاسم بالتقى والورع، وحمل في صدره علماً وفقهاً نافعاً.

وتحيز الرجل بزهده بمال الناس ومتاعهم، ورغبته فيما عند الله عزّ وجلّ فلم يسأل ذات يوم غير الله، ولم يستعن يوماً بعدِ، وإنما استعان بالله، وقال كلمته في وجه كل ظالم أراد أن يجور على حقوق الناس.

تفرد القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق الذي روى عشرات الأحاديث بعدة أحاديث وردت في بعض المسانيد منها ما يلي:

عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْ آيَاتٍ مُّحَكَّمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾<sup>(١)</sup>.

فقال الرسول ﷺ: «إذا رأيتم الذين يسألون عما تشبه منه فهم أولئك الذين سماهم الله فاحذروهم».

ومن مفاريده في الحديث أيضاً قال يحيى بن سعيد سمعت القاسم بن محمد بن أبي بكر يقول: قالت عائشة رضي

---

(١) سورة آل عمران: ٣/٧.

الله عنها: وارأساه، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعوك لك».

فقالت عائشة: واثكلتاه إني والله لأظنك تحب موتي ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا وارأساه؛ لقد هممت، وأردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فاعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمتنون ثم قلت يأبى الله ويدفع المؤمنون» - أو يدفع الله وسأبى المؤمنون<sup>(١)</sup>.

ومما روى نافع مولى عبد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا رأى الغيث قال: «اللَّهُمَّ صَبِّأْ هَيْنَا» أو «اللَّهُمَّ صَبِّأْ هَيْنَا».

وفي النساء جاء حديث القاسم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة»<sup>(٢)</sup>.

ومما تفرد به القاسم أيضاً هذا الحديث، عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أندرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل قالوا: الله عز وجل ورسوله أعلم».

قال عليه السلام: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه

(١) أورده أبو نعيم في الحلية ج ٢ ص ١٨٥، ١٨٦.

(٢) رواه أحمد بن حنبل.

بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»<sup>(١)</sup>.

هذه صورة سريعة عن أشهر روايات فقيه المدينة الشيخ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ولكنه رحمة الله أعرض عن تفسير القرآن أو التعرض لتفسيره، فهو من كبار حفاظ كتاب الله الكريم، لكنه كان فيه شدة ابن عمر ولم يطرق إليه لين ابن عباس.

وكان كما ذكرنا يتتجنب الإرسال في رواياته، ويحب الدقة فيها، وقد ذكر صاحب له هو<sup>(٢)</sup> عبد الله بن العلاء هذا المعنى عندما قال: سألت القاسم بن محمد أن يُملي على أحاديث فمعنى و قال: «إن الأحاديث كثرت على عهد عمر، فناشد الناس أن يأتوه بها فلما آتوه بها، أمر بتمزيقها، ثم قال: مئنة كمئنة<sup>(٣)</sup> أهل الكتاب.

والمائنة: كتاب وضعه أحبّار بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام فيما بينهم على ما أرادوا من غير الكتاب، فكانت المائنة هذه على هواهم ولم تكن منقوله عن موسى عليه السلام.

هكذا احتاط الرجل لنفسه من كل ما يكون فيه ريبة من

---

(١) رواه أحمد بن حنبل عن يحيى بن إسحاق في سنده.

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٥٨.

(٣) المصدر السابق.

الرواية عن رسول الله ﷺ، فكان محدثاً ثقةً فريداً في رأيه ومسلكه العلمي.

تقدمت السنون بالقاسم، وخارت القوى، فكُفَّ بصره وأصبح شيخاً كبيراً، وقد عُمِّر القاسم سنوات طويلة قاربت على الثانية والسبعين عاماً.

كان يحج كل عام، ومجلسه معروفٌ وعلمٌ في المدينة، أصارب منه تلاميذه علماً نافعاً، وكان علاماً مضيئاً لبيت الصديق في عصر التابعين، متواضعاً في علمه ثقة في روايته، لا يكفي عن البحث وتصحيح الروايات، كان فقيهاً رأي، ولكنَّه لا يعدم فقه الآخر، وقد أخذ الآخر من ثقات الصحابة والتابعين فأي راوية بعد عائشة؟ وأي شيخ للرواية بعد أبي هريرة وابن عمر وغيرهم؟

كُرمَ سنوات طولية من ولادةبني أمية الذين أجلوا علماء المدينة في عصره، وكان عمر بن عبد العزيز أكثر العارفين لعلم هؤلاء القاسم وأصحابه، وسالم بن عبد الله بن عمر، والذي يعد ابن خالة القاسم، فأم سالم ابنة يزدجرد ملك الفرس وهي إحدى البنات الثلاث ليزدجرد اللاتي اشتراهن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعرض عليهم طائفة من شباب المسلمين فاختارت الأولى: الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ وأنجبت له زين العابدين. واختارت الثانية: محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأنجبت له شيخنا

القاسم بن محمد بن أبي بكر رضوان الله عليهم، واختارت  
الثالثة: عبد الله بن عمر، وأنجذب له سالماً حفيد عمر بن  
الخطاب وأكثرهم نهاية.

فحينما كان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة أخذ  
بمشورتهم على مر الدوام، ولم يستخذ قراراً دون مشورة هؤلاء  
العلماء، لذلك عاش القاسم مكرماً حتى آخر سنوات حياته،  
مكانته معروفة في مجلس العلماء.

من أشهر فقهاء المدينة السبعة رضوان الله عليهم  
أجمعين . .

في العام الثاني والسبعين من عمره عزم على أداء فريضة  
الحج، وقد خارت قواه إلا أنه تعامل على نفسه، وركب دابته  
من المدينة، وقصد إلى مكة مليباً، تسابيحة تملأ الأفق، وهو  
يقطع الطريق الطويلة جنوباً إلى مكة، بينما أحد أبنائه يحدو  
خلفه تسابيح، وربما ذكريات الأب والجد الأكبر أبي بكر  
الصديق الذي مشت قدماه مهاجراً على هذه الطريق بصحبة  
رسول الله ﷺ .

أحسن القاسم بدنو الأجل، وأنه لا يقدر على موافقة المير  
إلى مكة، وتحسن الرجل عمانته البيضاء لما أصحاب رأسه من  
الألم، فدعا ربّه واستغفر، وتحسن لحيته الصفراء المخضبة  
بالحناء في سنواته الأخيرة، والتقت إلى ابنه وقال: «يابني إذا  
أنا ميت فكفي بي شيئاً كي كنت أصلني فيها: قميصي، ولزاربي،

ورِدَائِي، فَذَلِكَ كَانَ كَفْنٌ جَدُّكَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ سَوَّ عَلَيْهِ لَحْدِي  
وَالْحَقَّ بِأَهْلِكَ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقْفَوْا عَلَى قَبْرِي، وَتَقُولُوا كَانَ،  
وَكَانَ، فَمَا كُنْتُ شَيْئًا».

لقد كُنْتَ فَقِيهًا عَظِيمًا أَيْمَنَ الرَّجُلِ مِنْ فَقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ.  
لقد مات القاسم وصعدت روحه الطاهرة إلى السمااء، وصمتت  
مدينة رسول الله ﷺ وجاءها ليل هذا اليوم، فما نسمع في  
طرقاتها إِلَّا أصوات الذاكرين لله كثيًراً، ويرجعىء من بعيد من  
هناك في منطقة قديمة حيث دفن القاسم صوت يردد قوله عزَّ  
وجلَّ: ﴿يَا أَبْتَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ \* آرْجِعُهُ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً  
مَرْضِيَّةً \* فَادْخُلْهُ فِي عِبَادِي \* وَادْخُلْهُ جَنَّتِي﴾<sup>(۱)</sup> صدق الله  
العظيم.

---

(۱) سورة الفجر ۸۹/۲۷ - ۳۰.